نظرية السلالم الحجاجية
(خطب النساء في العصر الإسلاميّ – إنموذجاً –)

الكلمة المفتاح : السلالم ، الحجاجية ، النساء

البحث مستل من رسالة ماجستير

أ.م.د زينب الملا السلطاني ميسم صباح خضير

جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات

الملخص

ما تنفك الدراسات اللسانية الحديثة تتطور في شتى الجوانب، ولعل الدراسات الحجاجية من أحدث الدراسات اللسانية والخطابية التي تحاول الوصول إلى الكيفية التي تقوم عليها النصوص بعملية الإقناع والوقوف على أسباب التغاير بين النصوص من حيث درجة الإقناع بين الارتفاع والانخفاض، وأهم الوسائل اللسانية والبلاغية التي تستعمل في الحجاج.

وقد ظهرت كثيرٌ من الدراسات الحجاجيّة العربية في الآونة الأخيرة ولا سيما في المغرب العربي، إذ عُنيت البحوث العربية بدراسة التطبيقات الحجاجيّة على النصوص اللغوية، ولاسيما في القرآن الكريم.

ولابد من الإشارة الى أنّ للحجاج عند العلماء العرب ملامح وشذرات تختلف الاختلاف كلّه عن الحجاج بمفهومه الحديث وأسسه ونظريته ،وهذا ما ذهب إليه غير واحد من الباحثين حيث جعل مصطلح الحجاج أعجمي النشأة ثم انتقل إلى العربية عن طريق الترجمة[١]. وهذا لا يعدم تطبيقه في النصوص العربية من شعر ونثر بل على العكس إنّ تطبيق نظرية الحجاج في هذه النصوص يكشف لنا جوانب وامكانيات لم يلتفت إليها من قبل.

ونظرية السلالم الحجاجية مؤسسة على التدرّج في توجيه الحجج، وأهميتها لا تتجلى من خلال الصدق والكذب وإنّما في قوة الحجج وضعفها، فالخطيبة في حججها تُرتّب الحجج من حيث القوة والضعف، وذلك بحسب السياق الذي ترد فيه.

ولو عدنا لوجدنا الخطبة من أهم المواضع التي يظهر فيها الحجاج، لذا ارتأينا في هذه البحث أنْ نبحث عن أهمّ السمات الحجاجية التي امتازت بها تلك الخطب ولاسيما نظرية

السلالم الحجاجية ودورها في ترتيب الحجج بشكل سلّمي للتأثير في المتلقي وحمله على الإذعان.

وقد اعتمدنا في معالجة موضوعات هذا البحث ،منهجين هما المنهج الوصفي والتحليلي ، أما الوصفيّ فلأنَّه يتناسب مع الدّراسة اللّسانية التّداولية، وأما التحليليّ فيهدف إلى تحليل النماذج المختارة من الخطابة، وقد عملنا مزاوجة بين منهجي بيرلمان وديكرو في تحليل النصوص. واختيارنا للخطب كان بصورة انتقائية بما ينسجم وطبيعة الدراسة للوقوف عندها وتحليلها من عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى سنة(١٣٢هـ) إذ كانت الخطابة من أقدم الفنون الأدبية، وأنّ شرائح المجتمع جميعها بحاجة إلى الخطيب للمناشدة والتوعية وإثارة بعض القيم لديهم وما إلى ذلك من الغايات[٢].

والخطبة ((شكل فني يعتمد الأساس العاطفي في التعبير، مصحوباً بالأدوات الفنية من إيقاع وصورة ونحوهما من العناصر التي تطبع الفن)) [٣]. فمن خلال هذا التعريف يمكن أن نستنبط أهميتها وتأثيرها على الجمهور باستثمار الخطيب (العقل الجمعي) في إحداث الإثارة والإقناع[٤].

ولعل أبرز من اهتم بالخطابة في الثقافة الغربية والتأليف فيها هو أرسطو طاليس (٣٨٤/٣٨٥-٣٢٢ ق.م)، حيث إنَّ هناك من جعله رائد هذه الصنّاعة ومعلِّمها، فقد جعل مجموعة من محاضراته كتاباً سمَّاه (الخطابة)،ضمّ فيه مفاهيمها واستنبط اصولها وقوانينها على النحو الذي عدّها بعضهم ((أداة للتَّمويه (manipulation) بواسطة الخطاب)) [٥] ،أي إنها ذات وظيفة إقناعية تأثيرية تجعل من الخطاب وسيلتها المناسبة لتحقّقها.

أما في الثقافة العربية فإنّ الخطابة ،عُرِفت قبل مجيء الإسلام كغيرها من الفنون الأدبية ،فقد برزت طائفة من الخطباء وفرضت وجودها، لما عرفه المجتمع في تلك المدة من الحكم القبلي وتعصّب العربي لقبيلته وفخره بنسبه وقومه، وغيرها من الأسباب التي تبيّن إلى أي مدى كانت تُسهم في الحياة الجاهلية عامّة[٦]. ومع مجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم سارت الخطابة في رِحَاب الدَّعوة تخدم أغراضها وكانت ذات موضوع محدد قياساً بالخطابة الجاهلية التي لم تكن كذلك ،حين كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينها في حين الخطابة الإسلامية ،أصبحت ذات موضوع محدد يجول فيه الخطيب ويصول ،وبذلك نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة[٧]. يتبيّن ذلك في قول أبي عمرو بن

العلاء(ت ١٥٤هـ): ((فلما كثُر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر)) [٨].

وبهذا نجد أنّ ظهور الإسلام من أهم الحوادث التي نشَّطت الألسن من عقلها وأثارت الخطابة من مكمنها فوق ما كانت عليه في جاهليتها، ولاسيما العمل الأكبر لسيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) في تبليغ الدعوة عن طريق الخطابة وبهذا فإنها وصلت إلى أرقى ما وصلت إليه في اللسان العربي[٩]. فقد بقيت الخطابة على مر العصور محافظة على مكانتها البالغة وكان الخطباء هم المسيطرون على الجماعات وفي الحكومات الشورية هم الغالبون إذ تُصرَع الأمة بإشاراتهم وتخضع لسلطانهم بحججهم وقناعاتهم [١٠]، وليس كل شخص يمتلك المقدرة على الخطابة ،بدليل إنّ أشهر الخطباء السياسيين والمقاتلين الشجعان تنقصهم تلك المقدرة[١١].

مفهوم الحجاج:

نسعى في حياتنا اليومية عامة وساعة إلقاء الخطب إلى التأثير في أفكار الآخرين ومعتقداتهم عن طريق خطاباتنا، فنعمل على إقناع الشخص الآخر، ودفعه إلى قول شيء ما بفعل هذه العملية التأثيرية. فهذه العملية تدعى بـ (الحجاج) (L'argumentation)[١٢].

وقد زادت تعريفات الحجاج وتنوّعت بحسب وجهات نظر مستعمليه ومرجعياتهم العلمية، فمنهم مَنْ رأى أنّه: ((اتفاق جماعة على أمر مخصوص وهذا الاتفاق والتواطؤ أو التصالح إنْ تمّ بين جماعة المحدّثين تَفتّق عن مصطلح في الحديث، وإنْ قام بين جماعة الفقهاء على مسائل في الفقه نتج عنه مصطلح في الفقه وإنْ كان بين جماعة من النحاة صنعوا مصطلحاً نحوياً ومثل ذلك في سائر العلوم)) [١٣].

ونظراً لكثرة التعريفات التي حظي بها الحجاج وتنوع النظريات وعدم استقرار المصطلح جعل الحجاج مفهوماً عائماً يصعب الإحاطه به ولذا سنعرفه من وجهة نظر (بيرلمان) الذي يعدّ أكثرهم وضوحاً في تعريفه الحجاج إذ قال : إنّه ((دراسة التقنيات الخطابية التي تسمح بإنارة الأذهان أو زيادة تعلقها بالأطروحات التي تعرض من أجل أن تقبّلها))[١٤].

ومن الباحثين الذين عُنوا بترجمة هذا المصطلح ونقله إلى العربية الدكتور عبد الله صوله في كتابه(الحجاج في القرآن)،فقد ترجم المصطلح الفرنسي (Argumentation) بالحجاج[١٥]، إلّا أنّ ثمة مفاهيم متعلقة بمفهوم الحجاج وأخرى مقاربة له مما يجعل غير

المختص يظن أنها مرادفة له؛ وهي (المحاجّة – الاحتجاج – الحجاج الفلسفيّ– الحجاج المغالط– الخطابة– الجدال– المذاهب الكلاميّ– المناظرة – المناقشة) [١٦].

السلالم الحجاجية:

لقد حظيت مسألة المراتب أو المدارج بعناية كبيرة من لدن العلماء بعدِّها ظاهرةً لغويةً طبيعية ولاسيما في الدراسات اللسانية ومباحث فلسفة اللغة، والتدّرج سنّة كونية وسنّة شرعية أيضاً. ولذا خلق الله الإنسان والحيوان والنبات على مراحل متدرّجة كما في قوله تعالى :

(ولقدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِنْ سُلَالةٍ مِنْ طِينٍ ثمّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ ثمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنا العِظامَ لَحمًا ثمّ أنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخَالقِينَ) (المؤمنون: آية ١٢).

فالتدرّج من أبرز الأسس التي يقوم عليها الإقناع فعنْ طريقه يستقبل الإنسان الرسالة على جرعات تتوافق مع إمكاناته وملكاته وبما يتناسب مع طاقاته وقدراته العقلية والاستيعابية[١٧].

وبناءً على ما جاء في معجم (ريبول وموشلار) أنّ السلّمية صفةٌ ملازمةٌ لعدّة ظواهر ولاسيما اللغة التي وُصفت بعض أنظمتها الدلالية والتّداولية بكونها تراتبية سلّمية، وأنّ سلّمية اللغة مبثوثة في جميع أنظمتها يكمل بعضها بعضاً ولا سيما إذا أُضيف عامل المقام أو وصفيات الخطاب[١٨].

ولديكرو الفضل في وضع السلَّم الحجاجيّ والتنظير له ، إذ قام بشرح فكرته باستعمال عبارة (أشد من plusque) ، على أساس أنّ لفظة (جامد) أشدّ من (بارد) ولفظة (بارد) أشدّ من (منعش) وينطبق ذلك على الماء الساخن والدافئ والحار، فالذي يحدد العلاقة هو الكيفية التي بها تتحدّد العلاقة (أشدّ من) [١٩].

ولكننا لا نعدم وجود ملامح عند اللغويين والفلاسفة قبلهم فقد عرف المسلمون تصانيف سلّمية قائمة على التدرّج مثل تصانيف الأحكام الشرعية، وقاموا بترتيبها بجعل الواجب أو (الفرض) والحرام في طرفَيْ السلّم، تتوسطهما درجتا (المندوب) و(المكروه) بينهما المباح المطلق[٢٠].

وانطلاقاً من هذا فإنّ السلَّم الحجاجيّ ((عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية))[٢١]. فهو يتسم بالآتي:

أ- كل قول يرد في درجة ما من السلّم يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه بالنسبة لـ (ن)[٢٢].

ب- إذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة (ن) فهذا يستلزم أنّ (ج) أو (د) الذي تعلوه درجة تؤدي إليها والعكس غير صحيح. ومثال على ذلك:

حصل زيد على الشهادة الثانوية.
حصل زيد على شهادة الإجازة.
حصل زيد على شهادة الدكتوراه .

↑

ن= الكفاءة العلمية
د- الدكتوراه
ح- الإجازة
ب- الشهادة الثانوية

وبهذا فإنّ هذه الجمل تتضمّن حججاً تنتمي إلى الفئة الحجاجية نفسها وإلى السلّم الحجاجيّ نفسه وتؤدي إلى نتيجة مضمرة وهي (كفاءة زيد أو مكانته العلمية) وحصوله على شهادة الدكتوراه، يرد في أعلى درجات السلّم الحجاجيّ؛ لأنّ الدكتوراه مؤشرً قويٌّ على مقدرة زيد ودليل على مكانته العلمية [٢٣].

وبهذا فإنّ السلّم الحجاجيّ هو علاقة ترتيبية للحجج يمكن أن نرمز لها بالآتي:

ب، ح، د حجج وأدلة تخدم النتيجة (ن)[٢٤].

↑

ن
- د
- ح
- ب

ويلزمنا الآن أن نذكر القوانين التي تحقّق مقصدية التأثير والتوجيه التي يشغلها المتكلم ضمن الخطاب ذاته وهي:

أ- قانون النفي :

إذا كان قول (ب) مستعملاً من قبل متكلم ليخدم نتيجة معينة فإنّ نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادّة مثال ذلك:

أ- زيد مجتهد، لقد نجح في الإمتحان.

ب- زيد ليس مجتهداً، إنه لم ينجح في الإمتحان.

فإذا قبلنا الحجاج في (أ) وجب أن نقبل كذلك الحجاج في (ب) [٢٥].

قانون القلب:

يرتبط هذا القانون أيضاً بالنفي ويُعدّ متمماً له بمعنى إذا كانت إحدى الحجتين أقوى من الأخرى في التدليل على نتيجة معينة فإنّ نقيض الحجة الثانية أقوى من نقيض الحجة الأولى في التدليل على النتيجة المضادّة، مثال ذلك قولنا[٢٦]:

- حصل زيد على الماجستير، وحتى الدكتوراه.
- لم يحصل زيد على الدكتوراه، بل لم يحصل على الماجستير.

فحصول زيد على الدكتوراه أقوى دليلًا على علوّ مرتبته العلمية من حصوله على الماجستير على حين إنّ عدم حصوله على الماجستير، يُعدّ الحجة الأقوى على ضعف كفاءته من عدم حصوله على الدكتوراه[٢٧].

ب- قانون الخفض:

يقوم هذا القانون على قاعدة مفادها إنّه ((إذا صدق القول في مراتب معينة من السلّم، فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها)) [٢٨].

ويوضح قانون الخفض فكرة أنّ النفي اللغويّ الوصفيّ يكون مساوياً للعبارة (moinsque) [٢٩]. مثال ذلك قولنا:

الجو ليس بارداً.

لم يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل.

فسيؤوّل القول الأول على النحو الآتي:

إذا لم يكن الجو بارداً، فهو دافئ أو حار.

وسيؤوّل القول الثاني بالآتي:

لم يحضر إلّا القليل منهم إلى الحفل.

وإنّ الوقوف عند كيفيات اشتغال هذه القوانين يسهّل مهمة الباحث المحلّل للنصوص والخطابات، فهي التي تمنحه آليات واضحة وتحصيل الإقناع في المخاطب وإقناعه وكسب تأييده وتصديقه(٣٠).

وانطلاقاً من هذا فإنّ السلّم الحجاجيّ هو فئة حجاجية موجّهة أي مفهوم الوجهة أو الاتجاه الحجاجيّ (l orientation argumentative) يعني ((إنه إذا كان قول ما يمكن من إنشاء فعل حجاجيّ فإنّ القيمة الحجاجية لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجيّ وهو إما يكون صريحاً أو مضمراً)) (٣١).

وبهذا فإنّ السلّم الحجاجيّ يمثل إطاراً عاماً يطبع الأداء الحجاجيّ ويشمل أدوات الحجاج ومفرداته ولا يقتصر بذلك على الممارسة الذهنية المنطقية ويكون منهجاً وأسلوباً مستقراً في كفاءة الفرد التّداولية انطلاقاً من المواضعة الفكرية والمعرفية العامة المستقرة في الوعي الجمعيّ(٣٢).

ومما تجدر الإشارة إليه إنّ السلّم الحجاجيّ لا ينطبق على الألفاظ فقط بل ينطبق كذلك على الجمل وهذا ما سنوضّحه ونبيّنه من خلال خطب النساء الآتية:

فمنها ما جاء في خطبة **(أروى بنت الحارث)** وقولها: **((يا ابنَ اللَّخناءِ**(٣٣) **النَّابغةِ**(٣٤)**، أتكلّمُني أرْبَعْ على ظلِعك**(٣٥)**، وأعنَ بشأنِ نفِسكَ، فَوَ اللهِ ما أنتَ من قريش في اللُّبابِ من حسَبِها، ولا كريم مَنصبِها، ولقدَّ أدعاكَ ستَّةٌ من قريشٍ، كلُهم يزعُم أنّه أبوك، ولقد رأيتُ أُمَّكَ أَيَّامَ مِنّى بمكَّةَ مع كُلّ عبدٍ عاهرٍ**(٣٦)**، فاتَّم بهم فإنَّك بهم أشبهُ))** (٣٧).

اعتمد المرسل على سلسلة من الحجج ليصل إلى النتيجة ويمكن تمثيلها بالشكل الآتي:

ن= ج وابن حرام

حـ – لا تعلم مَنْ هو أبوك

ب – ليس لك منصب

بعد اتهام عمرو بن العاص وردّه عليها بأنها عجوز ضالّة وصلت إلى أرذل العمر وكل ما جاءت به من أقوال لا يؤخذ به، ردّت عليه حجّته عليها لتُدحضها فجاءت بأقوالها

وحججها بشكل تصاعديّ من الحجة الضعيفة إلى الأقوى لتصل إلى النتيجة غير المصرّح بها، التي يمكن أن تُستشف من السياق.

فالمرسِل أو الباثّ قد بنى سلّمية بشكلٍ قضويّ للتأثير في السامعين وإقناعهم بحسن انتقائها لعناصر المكونة لخطابها وهذا ما أكّده (أوريلان) في كتابه المعنون (بالحجاج) حيث قال: ((الحجاج انتقائيّ باعتبار الأهداف المرصودة إذ يقع اعتماد ما يمكنّ من تدعيم أو تأكيد النّظرية بل ما يُعدّ أقوى الحجج وأولَد البراهين وفي المقابل يستبعد ما سوى ذلك)).[٣٨]

وبهذا فالخطيبة أروى بدأت قولها بأنه ليس من قريش وليس له حسب وليس له منصب كريم لتختم قولها بالحجة الأقوى التي تمركزت في أعلى السلّم بأنّه ابن حرام، فليس هناك أعظم من أن يُتّهم الرجل بذلك وختمت قولها بجملة مؤكّدة بـ (إنّ) في قولها: ((فإنّك بهم أشبه))، فدلّت (إنَّ) هنا على التوكيد إذ أكّدت النتيجة وساعدت على تقويتها[٣٩].

وقد تأتي الحجج متدرّجة تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة حتى لو كان الخطاب يحمل سلّمين متعاكسين على وفق قانون الخفض كما في قول أروى: **((قال: أمَّا والله لو كان عليٌّ ما أَمَرَ لكِ بها، قالَتْ: صدقتَ، إنَّ عليّاً أدى الأمانة، وعَمِلَ بأمرِ اللهِ وأخذَ بِهِ وأنَت ضيَّعتَ أمانتك، وخنت الله في ماله، فأعطَيتَ مالَ اللهِ منَ لا يستحِقُّهُ، وقد فرضَ الله في كتابهِ الحقوقَ لأهلها وَبينَها فلم تأخذ بِها))** [٤٠].

فالمرجعيات التي اعتمدها الباثّ هنا كانت قولية وفعلية في سياق المقام غايتها الوصول إلى نتيجتين ضمن سلّمين، فعندما عمل معاوية موازنة بينه وبين الإمام عليّ (عليه السلام) ليجعل من ذلك حجّته التي تبيّن حلمه اتجاه خطاب أروى المضادّ له، وقد عملت هي بدورها موازنةً لتثبت مكانة الإمام عليّ (عليه السلام) ومنزلته العظيمة؛ وذلك لشعورها انّ معاوية بقوله هذا حاول أن يستميل الجمهور ويقنعهم ، فحاولت هي أن تُبقي على تأثيرها بالجمهور وذلك باعتمادها على حجج رتبتها بشكل تصاعديّ لتصل إلى النتيجة المتضمّنة في قولها. فقد ((تتسم بعض الملفوظات في مجتمع معين بتأثيرها العميق في التوجيه نحو بعض الملفوظات الأخرى)) [٤١].

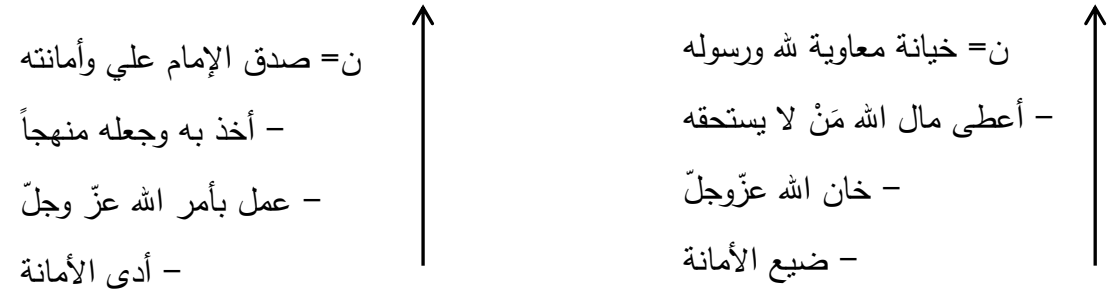

فجاءت بالحجة الأولى وهي أنّ علياً سلام الله عليه أدّى الأمانة وعمل بأمر الله إلى أن وصلت بالحجة الأقوى وهو أخذه بهذه الأوامر، وجعلها منهجاً له يسير عليه. فـ((الحجة تؤكد النتيجة ولا تفرضها))[٤٢].

وجاءت كذلك بالسلّم الحجاجيّ الآخر الذي يُعدّ نفياً واضحاً لصدق معاوية وأمانته، والترتيب وإن كان نفياً فهو أيضاً بدأ بشكل تصاعديّ من الحجة الأضعف إلى الأقوى؛ لأنّ ((أي حقل حجاجيّ ينطوي على علاقة ترتيبية (الحجج) نسمّيه سلّماً حجاجياً)) [٤٣]. فهو خان الله سبحانه وتعالى في المال الذي كان مسؤولاً عنه فضلاً عن ضياعه حقوق المسلمين وذلك بمنحه مال الله – سبحانه وتعالى– مَنْ لا يستحقه . فهذه الأخيرة عُدّت الحجّة الأقوى والدليل المفضي الى النتيجة والحكم عليه بالخيانة، ولذا تمركزت في أعلى السلّم.

ومما جاء من خطب النساء متضمنًا بعضًا من مراتب السلّم الحجاجيّ: خطبة **(أسماء بنت يزيد)** إذ قالت: **((وإنَّ الرجالَ، فُضِّلوا بالجمعات وشهود الجنائز والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد[٤٤] حفظنا لهم اموالَهم، وربّينا أولادَهم، أفنشاركهم في الأجرِ يا رسول الله؟))**[٤٥]

ن= تفضيل الرجل على المرأة

– شهود الجنائز

– بالجمع والجمعات

إنّ المحاجّ وهي أسماء، كانت أعلم بمَنْ تريد مخاطبته ألا وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد حوى خطابها طلباً جاءت به إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع بيان فضل الرجل على المرأة إذ جاءت بالحجج التي تؤكد النتيجة، فضلا عن أنّ حججها كانت تصاعدية من الأضعف إلى الأقوى وصولاً إلى النتيجة الموصوفة بأنها هدف الباثّ ولا سيما إنّ ((الحجة الأولى المطروحة في الخطاب مهيأة للمتلقي ومحفّزة لذهنه على التواصل والمتابعة لاستمالته وإذعانه)) [٤٦].

فالحجّة الأولى لدى الخطيبة كانت تفضيل الرجال على النساء بأيام الجمع وصلاة الجمعة وعبادة المريض وعدم ملازمتهم البيوت كما هو حال النساء والحجة الثانية شهودهم الجنائز وحضورها إلى أن وصلت الخطيبة إلى دليلها وحجتها الأقوى فجعلتها في نهاية قولها وتمركزت في أعلى السلّم الحجاجيّ ألا وهو الجهاد الذي كان الغاية المبتغاة من خطابها، وهذه الغاية تخدم النتيجة التي تريد أن تصل إليها.

فالجهاد – في نظرها – من أعظم الأفعال التي يكافئ الله بها الرجل، فهي بذلك ترغب في مشاركة الرجال والخروج للجهاد معهم؛ للحصول على الأجر، أو تريد عملاً تكون فيه هي والنساء بالتساوي مع الرجال منزلةً . فهذا الذي جاءت به الخطيبة يدرج ضمن عملية ((تدرّج الحجج يتسم بالخصوصية والذاتية أي لكل فرد بناؤه السلّمي الخاص)) (٤٧).

ومما يصدق عليه ذلك خطبة السيدة **(حفصة بنت عمر بن الخطاب)** وقولها: **((الماضي على سنتهِ المُقتَدى بدينهِ المُقتصّ لأثرهِ، فلم يزلْ سِراجَهُ زاهراً وضوؤه لامعاً ونُورهُ ساطعاً ، لَهُ منَ الأفعالِ الغُرر ومن الآراء المُصاص(٤٨)، ومِنَ التقدمِ في طاعةِ اللهِ اللّباب، إلى أن قبضهُ الله إليه))** (٤٩).

كانت خطبتها هذه بعد مقتل أبيها فجاءت بذكر أفعال أبيها العظيمة ومحاسنه والثناء عليه والدفاع عنه ولكي تُثبت بالحجج إخلاصه وحبّه وطاعته لله ورسوله، فجعلت أقوالها مرتبة بسلّمية إلى أن وصلت الى نتيجتها، إذ إنّ ((المخاطب يتوجّه إلى مخاطبةٍ قصد إقناعه بأمر معين والتأثير فيه والحجج التي يوردها لن تكون على درجة بل تختلف وتتفاوت فيما بينها وفق القوة والضعف))(٥٠).

ن= إخلاصه وحبه لله ورسوله لآخر يوم في حياته

– طاعته لرسول الله حتى بعد وفاته

– آراؤه خالصة للدين غير ذاتية

– أفعاله العظيمة في خلافته تشهد له

وهذا ما نجده في قولها وترتيبها للحجج، فالحجّة الأولى لديها هي أفعال أبيها العظام والانتصارات والفتوحات التي تحقّقت للمسلمين في عهده فهي كالنور الساطع في الظلمات، والحجّة الثانية آراؤه التي كانت تخدم الدين الإسلامي والمسلمين ولم تكن لمنفعةٍ شخصيةٍ، وكانت طاعته لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الدوام حتى قُتِل على يد أعداء الله والإسلام. فكل هذه الحجج التي أوردتها تخدم النتيجة الضمنية التي تريد الوصول اليها وهي إخلاصه وحبّه لله سبحانه ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا ما يؤكد أنّ القيمة الحجاجية للملفوظ غير ناتجة عن المعلومات التي يحتويها فقط بل قد تحتوي العملية على مورفيمات وتعابير أو صيغ زيادة على محتواها الإخباري تفيد في إعطاء توجّه حجاجيّ للملفوظ وحمل المتلقي إلى وجهةٍ أو أخرى(٥١).

ومما جاء من خطب النساء يُلحظ فيها السلّم الحجاجيّ: خطبة **(الدارميّة الحجونية)** فقد تمثّلت بين يدي معاوية إذ قالت: **((تعطيني مائة ناقةٍ حَمراء فيها فَحلُها وراعيها قال: تَصنعين بها ماذا؟. قالتْ: أغذو بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار**[٥٢]**، واكتسب بها المكارمَ، وأصلحُ بِها بين عشائر العربِ))** [٥٣]. ففي حجاج الخطيبة – هنا – مع معاوية جاءت حججها متسلسلة بشكل هرميّ لتثبت أنّ ما طلبته من النوق ليس لمنفعةٍ ذاتيةٍ لها . فالحجة الأولى هي أن تفيد من لبنها وتربيتها، والحجة الثانية هي أن تكرم بها مَنْ يقصدها والحجة الأقوى التي اعتلت حججها غرضها الإصلاح بين القبائل العربية المتنازعة وإيقاف خلافاتهم من دفع دية وما شابه. وهذا من أهم ما تريد أن تعمل به.

ومن الدلالة النفسية للسياق يتبين أنّ الخطيبة حاولت أن تردّ على معاوية ظنونه بها بأنْ غايتها المال وماطلبته منه إلّا لمنفعةٍ شخصيةٍ ولا يهمّها سوى ذلك . فجاء خطابها وتسلسلها بالحجج معتمداً على فهمها لعقلية المتلقي ونفسيته، وبهذا فإنّ المتلقي سيستند على معطيات السياق والمقام في بحثه عن قصد القائل (المتكلم) بحيث تتجاوز معاني المفردات التي يتركّب منها القول معجمياً ودلالياً[٥٤]؛ لأنّ المتلقي له دور مهم في عملية التفسير لا تقل أهميةً عن دور المتتبع للخطاب.

ن= لا أطمع بمنفعة ذاتية

ح٣– تصلح بها بين القبائل المتنازعة

ح٢– تكرم بها مَنْ يقصدها

ح١– تربيها وتستفيد منها

وبهذا نجد أنّ نظرية السلالم الحجاجية مؤسسة على التدرّج في توجيه الحجج فضلا عن أنّ أهميتها لا تتجلى من خلال الصدق والكذب وإنما في قوة الحجج وضعفها ، فالخطيبة في حججها – كما رأينا – ترتّب الحجج من حيث القوة والضعف وذلك بحسب السياق الذي ترد فيه.

الخاتمة

الحمد لله ربّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على نبيّنا مُحمَّد وعلى آله الطَّاهرين وصحبه الطيَّبين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين.

أمَّا بعدُ:

فبعد أن انتهينا من اتمام هذا البحث توصّلنا إلى عدد من النَّتائج وهي:

- إنّ الحجاج مصطلح أعجميّ النشأة انتقل إلى العربية عن طريق الترجمة، وقد ذكر البحث ما يقابله من مصطلح في العربية ، وإنّ تطبيق نظرية الحجاج في هذه النصوص الأدبية يكشف لنا جوانب وإمكانيات لم يلتفت إليها من قبل.
- إنّ أكثر ما تلتجئ إليه النساء في خطبهنّ هو المعنى الضمنيّ في الكلام الذي لم يُصرّحْ به ،ولعل مايفسر ذلك انّ ماتمتلكه المرأة من جرأةٍ ومهارةٍ وليس لمخافةٍ ؛ بيد أنّ الأقوال المتضمنة لمعانٍ خفية تكون أقوى حجاجية من الأقوال التي تخلو من الدلالات الضمنية فضلًا عن رغبتها في وضع المتلقي في دوامة التأويلات المختلفة.
- سرعة البديهية والارتجال لدى الخطيبة تجعلها أكثر سيطرة على مجريات الحديث وترابطه وتماسكه بشكل يخدم النتيجة ،التي تريد أن تصل إليها من دون جهدٍ أو عناءٍ.
- إنّ نظرية السلالم الحجاجية مؤسسة على التدّرج في توجيه الحجج، إذ لا تتجلى أهمية الحجج من خلال الصدق والكذب وإنَّما من قوتها وضعفها، فالخطيبة في حججها ترتّب الحجج من حيث القوة والضعف وذلك بحسب السياق الذي ترد فيه.
- إنّ للمرأة لغةً مميّزة تختلف بعض الشيء عن الرجل من حيث انتقاء المفردات والدقّة في التعبير، فالمفردات ممزوجة بين حكمة العقل وقوة العاطفة ، والألفاظ ترتبها بشكل منطقيّ لتمزجها بالعاطفة فتكون أكثر قوة من خلال التأثير بالجمهور ومحاولة إقناعهم، فضلا عن أنّ سلاح المرأة المعروف مجتمعيًا لسانها ، ولذا جاء توظيفها للسياق ومراعاتها للمتلقّي بكل حذرٍ ودقةٍ لتحقيق ما تريد أنّ تصل إليه.
- لخطب النساء أسبابٌ جوهريةٌ لها علاقة بمبادئ سياسية أو دينية وليس لمنفعةٍ شخصيةٍ، إذ تُنتقى الألفاظ والمفردات والتراكيب في بعض الخطب، وتعمل على توظيفها حجاجياً بما يخدم النتيجة.

Abstract

Stairs orbital theory
(speeches of women in the Islamic era-Anmozj)

Zaynab Almulla alsultani Maysam sabah
Baghdad University / College of Education

The pilgrims term outlandish upbringing moved into Arabic through translation, it does not execute its application in Arabic texts. On the contrary, The application of argumentation theory in these texts reveal to us the possibilities aspects did not pay attention to it before .

And the theory of stairs orbital institution gradient in directing arguments, and its importance is not reflected through the truth and lies, but in the strength of the arguments and weaknesses, in its arguments Valkhtaibh arrange arguments in terms of strengths and weaknesses, according to the context in which it appears.

الهوامش

(١) ينظر: مفهوم الحجاج: ١٠٤.

(٢) ينظر: أشهر الخطب ومشاهير الخطباء، سلامة موسى:٧.

(٣) الإسلام والفن، محمود البستاني: ٥٠.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٥٠.

(٥) التداولية من اوستين إلى غوفمان، صابر الحباشة : ٢١.

(٦) ينظر: فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي : ٣٢.

(٧) ينظر: تاريخ الأدب العربي –العصر الإسلامي–، شوقي ضيف: ١١٤.

(٨) البيان والتبين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:١/١٧٥.

(٩) ينظر: جواهر الأدب: ٥١٧.

(١٠) ينظر: الخطابة أصولها وتاريخها من أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة:١٧.

(١١) ينظر: فن الخطابة، دبل كارتيجي: ١٥–١٦.

(١٢) ينظر: خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، د. عباس حشاني: ٢٣، وينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة، د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة:٣٦.

(١٣) المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى آواخر القرن الثالث، عوض حمد القوزي: ٢٢.

(١٤) تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون، جيل جوتييه : ٤٢.

(١٥) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة : ٩.

(١٦) ينظر: مفهوم الحجاج، حامد ناصر الظالمي، عابد جدوع حنون (بحث منشور): ١٠٣.

(١٧) ينظر: الإقناع أسسه وأهدافه في ضوء أسلوب القرآن الكريم: دراسة وصفيّة تحليّلية، د. خالد حسين حمدان: ١٧.

(١٨) ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عز الدين الناجح: ١٢٢.

(١٩) ينظر: الروابط الحجاجية في شعر المتنبي (رسالة ماجستير): ١٤٥.

(٢٠) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د.طه عبد الرحمن: ٢٨٦، وينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن: ١٠٦.

(٢١) اللسان والميزان: ٢٧٧.

(٢٢) ينظر: القاموس الموسوعي للتّداولية، جاك موشلار، آن ريبول : ٢٩٨، وينظر: الحجاج رؤى نظرية ودراسات تطبيقية: ١٢٢.

(٢٣) ينظر: الإستدلال الحجاجي وآليات اشتغاله ،د. رضوان الرقبي : ٩٤.

(٢٤) ينظر: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، حمو النقاري: ٥٩-٦٠.

(٢٥) الحجاج مفهومه ومجالاته: ٦٠/١، اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي: ٢٢.

(٢٦) ينظر: اللسان والميزان: ٢٧٨.

(٢٧) الحجاج مفهومه ومجالاته: ٦٢/١، اللغة والحجاج: ٢٢.

(٢٨) استراتيجيات الخطاب: ٥٠١.

(٢٩) الحجاج مفهومه ومجالاته: ٦٣/١، اللغة والحجاج: ٢٤.

(٣٠) ينظر: الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، زكريا السرتي: ٧٠.

(٣١) ينظر: المصدر نفسه: ٧١.

(٣٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري: ٥٠٤، وينظر: التداولية وتحليل الخطاب الجدلي (قراءات تحليلية في أسس الحجاج وبناء الاستدلال)، د.محمد عديل: ٢١٦.

(٣٣) اللخناء: نتنه الرائحة ، لسان العرب: ٣٨٣/٢٣ مادة (لخن).

(٣٤) في العقد الفريد (النباغة) والنباغة الزانية .

(٣٥) ظلعك: الظلع (العيب).

(٣٦) في العقد الفريد : فسئلت أمك عنه، فقالت : كلهم آتاني، فنظروا أشبههم به فألحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به .

(٣٧) العقد الفريد: ٣٥٧/١، ، بلاغات النساء: ٤٥ جمهرة النثر النسوي :٨٥.

(٣٨) الحجاج في الشّعر العربي القديم من الجاهليّة إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، سامية الدريدي: ٤١.

(٣٩) ينظر: معاني النحو، فاضل السامرائي: ١٦١/١.

(٤٠) بلاغات النساء: ٤٦، جمهرة النثر النسوي:٨٧.

(٤١) لسانيات الخطاب الأسلوبية والتلفظ والتداولية، صابر الحباشة: ٢٥٥.

(٤٢) بلاغة الإقناع في المناظرة: ١٠١.

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) في أسد الغابة: وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعبادة المرضى والحج بعد الحج.

(٤٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القرطبي: ٣٥٠/٤، أسد الغابة في معرفة الصحابة، الجزري: ١٧/٧، جمهرة النثر النسوي: ١٠١.

(٤٦) أسلوبية الحجاج التّداولي والبلاغي تنظير وتطبيق على السور المكية، د. مثنى كاظم:١٢١.

(٤٧) الخطاب الحجاجي في المقالات الإصلاحية لمحمد بشير الإبراهيمي (مقارنة لغوية دلالية) رسالة ماجستير:١٠٦

(٤٨) المُصاص: خالص كل شيء – لسان العرب: ٩١/٧ (مادة مصص).

(٤٩) بلاغات النساء: ٤٣، نثر الدر: ٢٤٥/٢، جمهرة النثر النسوي: ١٠٤.

(٥٠) الإستدلال الحجاجي التداولي وآليات إشتغاله: ٩٥.

(٥١) ينظر: معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحافي الجزائري: ١٨٥ (رسالة ماجستير).

(٥٢) في العقد : وأستجيي

(٥٣) ينظر: بلاغات النساء: ٨٨، العقد الفريد: ٣٥٣/١؛ جمهرة النثر النسوي: ٢٦٥.

(٥٤) ينظر: السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلوم ،متابعة تداوليّة : باديس لهويمل (بحث منشور): ١٩٨.

المصادر والمراجع

- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** : لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (٤٦٣هـ)، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل حمو عبد الموجود، تقديم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم البري، جمعة طاهر النجار، دار الكتب العلمَّية، بيروت ،١٤٣١هـ- ٢٠١٠م .
- **استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية:** عبد الهادي بن ظافر الشهري، الطَّبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤
- **الإقناع أسسه وأهدافه في ضوء أسلوب القرآن الكريم دراسة وصفية تحليلية:** خالد حسين حمدان، الجامعة الإسلامية ،غزة ١٤٢٦هـ _ ٢٠٠٥م

- **الاستدلال الحجاجي وآليات إشتغاله** ،د. رضوان الرقبي، مجلة عالم الفكر، العدد ٢ المجلة ٤٠ ، أكتوبر، ديسمبر، ٢٠١١م.
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة:** تأليف عز الدين أبن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري (٦٣٠ هـ)، تحقيق الشيخ علي حمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، تقديم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم البري، د. عبد الفتاح أبو سنه، د. جمعة طاهر النجار، دار الكتب العلميَّة، بيروت ، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- **أسلوبية الحجاج التّداولي والبلاغي تنظير وتطبيق على السور المكية:** د. مثنى كاظم، حكمة للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
- **بلاغات النساء:** تأليف الأمام ابي الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور المولود سنة(٢٠٤ هـ _ ت ٢٨٠هـ)، تحقيق بركات يوسف هبود ،المكتبة العصرية، بيروت ،١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- **التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه:** تنسيق حمو النقاري، ، منشورات كلية الآداب دار العلوم الإنسانية بالرباط، المملكة المغربية، الطَّبعة الأولى،١٤٢٧هـ - ٢٠٠١ م .
- **التّداولية وتحليل الخطاب الجدلي، قراءات تحليلية في أسس الحجاج وبناء الاستدلال:** د.محمد عديل عبد العزيز علي، عالم الكتب الحديث ،الأردن، الطَّبعة الأولى، ٢٠١٦م
- **جمهرة النثر السنوي في العصر الإسلامي والأموي ، معجم ودراسة:** د. ليلى محمد ناظم الحيالي، مكتبة لبنان ناشرون ،الطَّبعة الأولى،١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م .
- **الحجاج رؤى نظرية ودراسات تطبيقية:** حسن خميس الملخ، عالم مركز الكتب الحديث، الأردن، الطَّبعة الأولى،٢٠١٥ م.
- **الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة:** د. حافظ إسماعيل علوي، دار الكتب الحديث ،٢٠١٠م.
- **الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية الى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه:** د. سامية الدّريدي، ، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨ م .

- **الخطاب الحجاجي في المقالات الإصلاحية لمحمد البشير الإبراهيمي مقاربة لغوية دلالية:** دراسة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة الحاج لخضر، الجزائر،٢٠١٢م.
- **الروابط الحجاجية في شعر أبي الطيب المتنبي (مقاربة تّداولية) :**خديجة بو خشرة ،رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٠م.
- **السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلوم ،متابعة تداولية:** باديس لوهيمل، مجلة المخبر، جامعة بسكرة،، الجزائر ،العدد ٩، ٢٠١٣ م.
- **العوامل الحجاجية في اللغة العربية:** عز الدين ناجح، مكتبة علاء الدين، تونس، الطَّبعة الأولى، ٢٠١١م.
- **العقد الفريد:** تأليف الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ت٣٢٨هـ تحقيق د. مفيد محمد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٤هـ -١٩٨٣ م .
- **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام:** د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء، الطَّبعة الثَّانية، ٢٠٠٠م .
- **القاموس الموسوعي للتداولية :**جاك موشلار- آن ريبول، ترجمة مجموعة الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، مراجعة خالد ميلاد، دار سيناترا د، تونس، الطَّبعة الثانية، ٢٠١٠ م.
- **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:** د.طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطَّبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- **لسان العرب:** للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري . دار صادر، بيروت .
- **اللغة الحجاج :** أبو بكر العزاوي ، العمدة في الطبع ،الطَّبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.
- **لسانيات الخطاب الاسلوبية والتلفظ والتّداولية:** صابر الحباشة ،دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، الطَّبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠ م.
- **معاني النحو:** فاضل السامرائي _ دار أحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطَّبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٨هـ _ ٢٠٠٧م .

• **معالم لدراسة تّداولية وحجاجية للخطاب الصحافي الجزائري (١٩٨٩م _٢٠٠٠م):** عمر بالخير، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ٢٠٠٦م.